

حياة أعظم الرسل

محمد توضع حليمة

محمّد تُرَضِعُهُ حَلِيمَةُ

وَدَّعَتْ حَلِيمَةُ السَّيِّدَةَ آمِنَةً ، أُمُّ
النَّبِيِّ ، وَوَدَّعَتْ جَدَّهُ ، وَأَخَذَتْ مُحَمَّدًا
بَيْنَ يَدَيْهَا . وَرَكِبَتْ حِمَارَتَهَا وَبَيْنَ
يَدَيْهَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ . وَأَرَادَتْ حَلِيمَةُ
أَنْ تُلْحَقَ النِّسَاءَ اللَّاتِي سَبَقْنَهَا ؛ لِتَكُونَ
مَعَهُنَّ فِي هَذِهِ الرُّحْلَةِ إِلَى بَيْتِهَا . وَقَدْ
عَجِبَتْ كَثِيرًا حِينَمَا وَجَدَتْ حِمَارَتَهَا

تَمْشِي بِسُرْعَةٍ ، مَعَ أَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ بِالْبُطْءِ
الشَّدِيدِ . فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا : هَذِهِ بَرَكَهٌ
مُحَمَّدٍ . لَحِقْتُ حَلِيمَةً الْمُرْضِعَاتِ اللَّاتِي
سَبَقْنَهَا ، فَتَعَجَّبَنَ مِنْهَا ، وَسَأَلْنَهَا :
كَيْفَ لَحِقْتِنَا يَا حَلِيمَةُ ؟ أَجَابَتْ حَلِيمَةُ :
إِنِّي مَعَكُنَّ الْآنَ ، وَسَأَسْبِقُكُنَّ . فَقُلْنَ
لَهَا : أَخْبِرِينَا عَمَّا حَدَثَ مِنْذُ أَنْ
تَرَكَنَاكِ .

قَالَتْ حَلِيمَةُ : أَنْظُرْنَ إِلَى هَذَا
الطِّفْلِ ! أَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَجْمَلُ طِفْلِ .

إِنَّ حِمَارَتِي كَانَتْ بِطِئَّةَ السَّيْرِ ،
فَلَمَّا رَكِبَ هَذَا الطِّفْلُ مَعِيَ تَغَيَّرَ حَالُهَا ،
فَصَارَتْ مُسْرِعَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بِطِئَّةً .
فَضَحِكْتَ النِّسَاءُ ، وَقُلْنَ : إِنَّا
نَعْرِفُهُ ، إِنَّهُ الْيَتِيمُ الْفَقِيرُ .

قَالَتْ حَلِيمَةٌ : نَعَمْ إِنَّهُ يَتِيمٌ فَقِيرٌ .
فَسَأَلْنَهَا بِاسْتِهْزَاءٍ : مَا اسْمُ طِفْلِكَ
الَّذِي يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ ؟ فَأَجَابَتْ : مُحَمَّدًا .
فَقُلْنَ لَهَا : إِنَّهُ اسْمٌ نَادِرٌ .

قَالَتْ حَلِيمَةٌ : إِنَّهُ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ

أَحَدُ قَبْلَهُ ، وَأَطْلَقَتِ اللَّجَامَ لِذَايْتِهَا ،
إِلَى بَيْتِهَا قَبْلَ صَاحِبَاتِهَا بِمُدَّةٍ .

نَزَلْتُ مِنْ فَوْقِ الدَّابَّةِ بِرَفِيقٍ ، حَتَّى
لَا تُزْعِجَ الطُّفْلَ الْمُخْتَارَ . ثُمَّ طَلَبْتُ مَاءً
دَافِئًا ، وَأَعْطَتْهُ حَمَامًا ، ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ،
وَوَضَعَتْهُ فِي فِرَاشِهِ لِيَسْتَرِيحَ وَيَنَامَ .
وَعَجِبْتُ حَلِيمَةً كَثِيرًا ؛ لِأَنَّ الطُّفْلَ فِي
أَثْنَاءِ هَذِهِ الرُّحْلَةِ الْمُتْعِبَةِ لَمْ يَبْكْ كَغَيْرِهِ
مِنَ الْأَطْفَالِ ، بَلِ اسْتَمَرَّ مُبْتَسِمًا طَوْلَ
الطَّرِيقِ . وَبَعْدَ أَنْ اسْتَحَمَّ وَرَضَعَ نَامَ

نَوْمًا هَادِئًا .

إِعْتَقَدْتُ حَلِيمَةً وَزَوْجَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا
نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ اللَّهِ . وَاعْتَنَى بِهِ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنَ الْأُسْرَةِ ، وَتَأَكَّدَ الْجَمِيعُ
أَنَّ سَعَادَةَ الْحَظِّ قَدْ دَخَلَتْ بَيْتَهُمْ ،
مُنْذُ دَخَلَهُ مُحَمَّدٌ وَعَاشَ فِيهِ . وَقَدْ
ظَهَرَ لِحَلِيمَةَ مُنْذُ مَجِئِ مُحَمَّدٍ أَنَّ
غَنَمَهَا تَرْجِعُ إِلَى الْبَيْتِ كَثِيرَةَ اللَّبَنِ ،
وَأَنَّ أَلْبَانَهَا أَكْثَرُ مِمَّا فِي الْأَغْنَامِ
الْأُخْرَى ، فَتَحْلُبُ مِنَ اللَّبَنِ مَا شَاءَتْ ،

وَتَجِدُ اللَّبْنَ كَثِيرًا ، فَتَشْرَبُ وَيَشْرَبُ
أَوْلَادُهَا . وَكَانَتْ بِلَادُ بَنِي سَعْدٍ مَعْرُوفَةً
بِهَوَائِهَا الطَّيِّبِ ، وَمَائِهَا الْعَذْبِ ، وَلِسَانِهَا
الْفَصِيحِ .

مَرَّتِ الْأَيَّامُ بِسُرْعَةٍ فَكَبِرَ مُحَمَّدٌ ،
وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقِفَ وَيَمْشِيَ وَحْدَهُ قَبْلَ
الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَظِرُهَا حَلِيمَةُ .
وَتَعَلَّمَ النُّطْقَ ، وَبَدَأَ يَتَكَلَّمُ بِأَفْصَحِ
لِسَانٍ . فَعَجِبَ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ يَمْشِيَ وَهُوَ
صَغِيرُ السِّنِّ . وَعَجِبَ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ

يَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الصَّحِيحَةَ .
وَلَا عَجَبَ ؛ فَقَدْ عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ
يَعْلَمُ ، وَأَعَدَّهُ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْعَالَمِ فِي
قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ . وَمَكَثَتْ أُمُّهُ آمِنَةً وَحْدَهَا فِي
بَيْتِهَا . وَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَتْ تُفَكِّرُ فِي
طِفْلِهَا ، وَتَنْتَظِرُ انْتِهَاءَ السَّنَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ
مِنْ حَيَاتِهِ .

وَقَدِ اعْتَادَتْ حَلِيمَةُ مُدَّةَ الرِّضَاعَةِ
أَنْ تُرْسِلَ إِلَى أُمِّهِ ، وَتُخْبِرَهَا مِنْ
وَقْتٍ لآخرَ عَنْ صِحَّتِهِ ، وَنُمُوِّ

جِسْمِهِ ، وَابْتِسَامَاتِهِ ، وَلُغَتِهِ الَّتِي
يَتَحَدَّثُ بِهَا .

وَفِي رِسَالَةٍ مِنَ الرِّسَائِلِ قَالَتْ حَلِيمَةُ
لِأُمِّهِ :

« إِنِّي أَحْسُّ إِحْسَاسًا قَوِيًّا بِأَنْنَا
لَا نَقُومُ بِرِعَايَتِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ وَإِرْشَادِهِ ،
وَلَكِنَّ هُنَاكَ قُوَّةَ عَظِيمَةٍ تَرْعَاهُ وَتُرَبِّيهِ
وَتَلَحَّظُهُ ، وَتُعْنِي بِهِ الْعِنَايَةَ كُلَّهَا .
وَهَذِهِ الْقُوَّةُ لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَصِفَهَا . »

مَرَّتْ سَتَانِ وَلَمْ تُحْضِرْ حَلِيمَةُ

الطُّفْلَ الْعَظِيمَ إِلَى مَكَّةَ ، فَفَكَّرَتْ السَّيِّدَةُ
آمَنَةُ كَثِيرًا فِي أَنْ تُرْسِلَ إِلَى حَلِيمَةَ
لِتُحْضِرَهُ ، وَأَخِيرًا وَصَلَتْ حَلِيمَةُ بِالطُّفْلِ
الْمَحْبُوبِ إِلَى بَيْتِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

أَسْرَعَتْ آمَنَةُ إِلَى فَنَاءِ (صَالَةِ)
الْبَيْتِ ، وَقَابَلَتْ ابْنَهَا الْمَحْبُوبَ ،
وَوَضَعَتْهُ عَلَى صَدْرِهَا ، وَالذُّمُوعُ
تَتَسَاقَطُ عَلَى خَدَّيْهَا . وَلِشِدَّةِ
تَأَثُّرِهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ
وَاحِدَةٍ . وَأَخِيرًا مَلَكَتْ نَفْسَهَا ،

وَبَدَأَتْ تَتَكَلَّمُ مَعَ ابْنِهَا ، وَتَضَعُ
يَدَهَا عَلَى خَدِّهِ ، وَشَعْرَهُ الْجَمِيلِ ،
وَتَنْظُرُ إِلَى عَيْنَيْهِ الْوَاسِعَتَيْنِ ، وَقَامَتِهِ
الْمُعْتَدِلَةِ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَا أَجْمَلَكَ ! بَارَكَ
اللَّهُ عَلَيْكَ .

دَخَلَتْ آمِنَةُ الْبَيْتَ وَمَعَهَا حَلِيمَةُ ، ثُمَّ
طَلَبَتْ الْأُمَّ مِنْ ابْنِهَا أَنْ يَقِفَ ، وَيَمْشِيَ ،
وَأَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا ، فَجَرَى ، فَضَمَّتْهُ
إِلَى ذِرَاعَيْهَا ، وَعَانَقَتْهُ وَعَانَقَهَا ،
ثُمَّ قَالَتْ لَهُ : أَنْتَ رُوحُ قَلْبِي ، وَنُورُ

عَيْنَيَّ . فَكَّرْتُ آمِنَةً فِي زَوْجِهَا ،
وَتَمَنَّنْتُ لَوْ كَانَ حَيًّا لِيرَى ابْنَهُمَا
الكَامِلَ الْعَظِيمَ ، ثُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا
مُسْتَحِيلٌ . وَأَجْلَسْتُ مُحَمَّدًا بَيْنَهَا
وَبَيْنَ حَلِيمَةَ . ثُمَّ قَالَتْ لِحَلِيمَةَ :
شُكْرًا جَزِيلًا لَكَ يَا حَلِيمَةَ . لَقَدْ
وَفَّيْتَ بِوَعْدِكَ حَقًّا . إِنَّهُ جَمِيلٌ
جِدًّا ، مَمْلُوءٌ نَشَاطًا . وَقَدْ كَبُرَ
جِسْمُهُ ، وَيُرَى كَأَنَّهُ ابْنُ أَرْبَعِ
سَنَوَاتٍ ، مَعَ أَنَّهُ كَمَا تَعْرِفِينَ ابْنَ

سَتَيْنِ .

قَالَتْ حَلِيمَةُ : إِنِّي خَائِفَةٌ عَلَيْهِ ؛
فَالْمَرَضُ مُنْتَشِرٌ بِمَكَّةَ ، وَرَجَّتْهَا
أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِالْمُكْتِ مَعَهَا مُدَّةً
أُخْرَى ، حَتَّى يَكْبُرَ ، وَتَتَخَلَّصَ مَكَّةُ
مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ الْمُنْتَشِرِ . نَظَرَتْ
آمِنَةً إِلَى حَلِيمَةَ بِاسْتِغْرَابٍ ، ثُمَّ
سَكَتَتْ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ . فَتَشَجَّعَتْ حَلِيمَةُ
وَقَالَتْ : إِنِّي لَا أَفْكُرُ إِلَّا فِي شَيْءٍ
وَاحِدٍ ، وَهُوَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الطِّفْلِ ،

مِنَ الْمَرَضِ الْمُنْتَشِرِ بِمَكَّةَ . وَرَجَتْ
رُجُوعَهُ مَعَهَا إِلَى بَنِي سَعْدِ ، لِيَقْضِيَ
مُعْظَمَ وَقْتِهِ فِي الْهَوَاءِ النَّقِيِّ ، الْبَعِيدِ
عَنِ الْمَرَضِ .

نَظَرْتُ آمِنَةً إِلَى ابْنِهَا مِرَارًا ،
وَفَكَّرْتُ طَوِيلًا ، وَوَجَدْتُ أَنَّ مِنْ
الْوَاجِبِ أَنْ تَحْتَمِلَ ، وَتَسْمَحَ لِطِفْلِهَا
بِالرُّجُوعِ مَعَ مُرَبِّيتِهِ . ثُمَّ قَالَتْ
لِحَلِيمَةَ :

يُؤْلِمُنِي يَا حَلِيمَةُ أَنْ أَفَارِقَ ابْنِي

مَرَّةً أُخْرَى ؛ وَلَكِنْ خَوْفًا مِنَ الْعَدْوَى
يَجِبُ أَنْ أُنْسَى نَفْسِي ، وَأُفَكِّرَ فِيهِ
وَحْدَهُ . وَلِهَذَا أَسْمَحُ لَكَ بِأَنْ تَأْخُذِيهِ
ثَانِيَةً .

وَلَمْ تَسْتَطِيعِ آمِنَةً أَنْ تَمْلِكِ نَفْسَهَا ،
وَأَخَذَتْ تَبِكِي ، وَضَمَّتْ ابْنَهَا
إِلَى صَدْرِهَا ، وَقَبَّلَتْهُ قُبْلَةً
الْوَدَاعِ ، وَسَلَّمَتْهُ إِلَى حَلِيمَةٍ ،
وَقَالَتْ لَهَا :

سَأَتْرُكُهُ أَمَانَةً بَيْنَ يَدَيْكَ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنْتِ حَلِيمَةً ؛ لِأَنَّهَا
تُرِيدُ أَنْ تَصِلَ إِلَى بَيْتِهَا نَهَارًا قَبْلَ
أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ . وَأَخَذَتْ مُحَمَّدًا
بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا ، وَرَكِبَتْ مَسْرُورَةً ؛
لِأَنَّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُقْنِعَ أُمُّهُ بِرَأْيِهَا .
وَتَفُوزَ بِمُحَمَّدٍ مَرَّةً ثَانِيَةً . وَأَسْرَعَتْ
حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا ، وَسَرَّتْ
أُسْرَةَ (عَائِلَةً) حَلِيمَةَ كَثِيرًا لِرُجُوعِ
الطِّفْلِ الْعَظِيمِ مَعَهَا .

وَرُبَّمَا تَتَأَثَّرُ مَعِيَ يَا بُنَيَّ لِبُعْدِ مُحَمَّدٍ

عَنْ أُمِّهِ ، وَثِقَ بِأَنَّ حَلِيمَةَ سَتُعْنِي
بِهِ كُلَّ الْعِنَايَةِ ، وَسَيَرْجِعُ ثَانِيَةً
إِلَى أُمِّهِ وَهُوَ مُتَمَتِّعٌ بِكُلِّ صِحَّةٍ
وَعَافِيَةٍ .